﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمّد ﷺ: 16 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلهما:

تعليل جزاء الآخرة بأعمال الدُّنيا

لمّا بيَّنتِ الآيات السّابقة أحوال المؤمنين والكافرين، وموقفهم من الرِّسالة والرَّسول والمرسل ﷺ، ومآل كلٍّ واحدٍ منهم في الآخرة، وما يكون للمؤمنين من النَّعيم المقيم، وللكافرين من العذاب الأليم؛ ناسب الانتقال إلى ذكر حالٍ من أحوال الفريقين في تلقي الرِّسالة، والموقف منها إقبالًا أو إعراضًا؛ ليكون ذلك بمنزلة التَّعليل للجزاء في الآخرة، فكأنَّه قيل: نال كلٌّ من الفريقين جزاءه في الآخرةِ؛ لما يصدر عنه في هذه الحياة الدُّنيا؛ استهزاءً وإعراضًا من المنافقين، واهتداء من المؤمنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَانِفًا﴾: (أنف) أصلٌ يدلُّ على أخْذ الشَّيءِ من أوَّله، واستَأنَفْتُ كَذا، أي: رَجَعْتُ إلَى أوَّله، وائتَنَفتُ ائتِنافًا، ومُؤتَنَفُ الأمرِ: ما يُبتَدَأُ فيهِ، ومِن هَذا البابِ قَولُهُم: فَعَلَ كَذا آنِفًا، كَأنَّهُ ابتِداؤُهُ، وقالَ اللّه تَعالَى: ﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[1]، وأصل ذلك كلِّه من الأنف: الجارحة، ثُمَّ سُمّي به طرَف الشَّيءِ وأشرفه، فيقال: أنف الجبل وأنف اللِّحية[2]، أي: المبدأ منهما، ومعنى آنفًا: مبدأ الوقت الَّذي وقع فيه الكلام، وهي على ذلك ظرف، أو هي

(1) ابن فارس، المقاييس: (أنف).
(2) الراغب، المفردات: (أنف).

اسم فاعل يُراد به وصف المتكلِّم بحالةِ الابتداء، أي: مُبْتَدِئًا قبل انفصالنا عنه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المكر والإعراض واتِّباع الأهواء من أصول النِّفاق

تصوِّر الآيةُ الكريمةُ تصويرًا بليغًا ما كان عليه المنافقون من مكر وخداع، ومن خبثٍ وسوء طويَّة، وتردُّ عليهم بالذَّمِّ الشَّديد الَّذي يناسب جرمهم، فتقول: ومن المنافقين من يستمع إليك - أيُّها الرَّسول - سماعًا لا قبول معه، بل مع إعراض، حتَّى إذا خرجوا من عندك؛ قالوا للَّذين آتاهم الله علمًا: ماذا قال من حديثه قريبًا؟ تجاهلًا منهم وإعراضًا، أولئك هم الَّذين ختم الله على قلوبهم، فلا يصل إليها خير، واتَّبعوا أهواءهم، فأعمتهم عن الحقِّ[2]، ثُمَّ يعقِّب سبحانه على ذلك ببيان حال المؤمنين الصّادقين، فيقول: أمّا الَّذين اهتدوا إلى الحقِّ، واستجابوا له، وخالطت بشاشته قلوبهم؛ فهم الَّذين زادهم الله تعالى هداية على هدايتهم، وزادهم علمًا وبصيرة وفقهًا في الدّين، ومنحهم بفضله وإحسانه خُلُق التَّقوى والخشية منه، والطّاعة لأمره، وكافأهم على ذلك بما يستحقّون من ثواب جزيل[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها:

غرض الاستئناف تعليل المعاني السّابقة بطريق الإخبار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ للاستئناف، فالكلام مستأنفٌ مَسوقٌ؛ لبيانِ جانبٍ آخرَ من استهزائهم وتعنُّتهم، فقد كان المنافقون يحضُرون مجلسَ رسولِ الله ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا يَعونَه، ولا يُلْقون إليه بالًا، فإذا خرجوا من المجلس؛ سألوا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 467.
(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 233، والمختصر في التفسير، مركز تفسير.
(3) طنطاوي، الوسيط: 13/ 233.

أهل العلم من الصَّحابة ماذا قال السّاعة على جهة الاستهزاء، وقيل في خطبة الجمعة، فتكون الآية مدنيَّة[1].

تعيين مرجع الضَّمير:

المشركون أصنافٌ منهم المنافقون

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعود إلى مفهوم من الآياتِ السّابقة، الَّتي أشارت إلى المشركين، وتوعَّدتهم بالعذاب في الدُّنيا والآخرة، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾، إشارةٌ إلى المشركين، وقوله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ إشارةٌ أخرى إليهم، فهم الموصوفون بأنَّهم ممَّن زيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم، واتَّبعوا أهواءهم، وهم المتوعَّدون بأن يُسقَوا ماءً حميمًا، فقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، أي: ومن هؤلاء المشركين منافقون، جاؤوا يستمعون إليك[2]، فيكون الضَّمير عائدًا على المجموع الكلّيِّ من المشركين، والمقصود بالكلام المنافقون الَّذين هم بعض المشركين.

نوع (مِنْ) ودلالتها:

حرف (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ﴾ للتَّبعيض، أي: بعضٌ من المشركين الضّالين، من يستمع إليك، وهم المنافقون.

دلالة المخالفة بين الضَّميرين في السّياق:

المسموع واحد، وفعل الخروج يأتي متدرِّجًا

جاء فعل ﴿يَسْتَمِعُ﴾ مسندًا إلى ضمير مفرد باعتبار لفظ الموصول ﴿مَّن﴾، وجُمِعَ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿خَرَجُواْ﴾ باعتبار معنى الموصول، ونكتة الإفراد في ﴿يَسْتَمِعُ﴾: وحدة المسموع، فجميعهم يسمع شيئًا واحدًا، وفيه إشارة إلى قلَّة المستمعين فيهم بالأذُنِ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 297، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 96، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 211.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 334.

الواعية، ونكتة الجمع في: ﴿خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ﴾ إشارة إلى كثرة المعرضين الجاحدين المستهزئين[1]، وأنَّهم خرجوا تدريجيًّا، والإعراض بعد الاستماع يتفاوت بحسبِ تقديرِ كلِّ واحدٍ لما استمع، فظهر التَّعدُّد، فَناسَبَه الجمع.

دلالة صيغة الافتعال:

تفاعلُ المنافقين تفاعل المتربِّص المترقِّب لا تفاعل المقبل المنتفع

مجيء الفعل على صيغة (افتعل)، في قوله: ﴿يَسْتَمِعُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يتكلَّفون سماع الحقِّ على غير طواعيةٍ منهم؛ لاستثقالهم البيان، كأنَّه استماع الكاره المُضْطَرِّ، كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: 13]، أو للدَّلالة على المبالغة والاجتهاد والقوَّة في تحصيل الفعل، أي: يتحرَّون بغايةِ جُهدِهم لعلَّهم يجدون في المتلوِّ مَطعنًا يشكِّكون به على الضُّعفاء[2]، فيُقبِلون عليه إقبال المتربِّص لا إقبال الحريص.

غرض حذف المفعول:

حُذِف مفعول فعل ﴿يَسْتَمِعُ﴾ للعموم، فهُم يستمعون القرآن، ويستمعون السُّنَّة، ويستمعون الأجوبة على أسئلة الصَّحابة، وجماع ذلك كلِّه هو الاستماع للخير والهدى.

دلالة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الوظيفيَّة:

أداة (حتَّى) جامعةٌ بين غاية السّابق وابتداء اللّاحق

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ حرف غايةٍ وابتداء[3]، فهي هنا تجمع بين وظيفتين، فهي غاية لفعل الاستماع، أي: إنَّ استماعهم يَمتدُّ إلى أن يخرجوا، فالخروج هو نهاية الاستماع، وهي كذلك هنا حرف ابتداء يمهِّد للانتقال إلى جملة جديدة (ابتداء)، فما بعدها ليس جزءًا من الحدث السّابق، بل هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 225.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 225.
(3) الخطيب وآخرون، التفصيل: 26/ 125.

انتقال إلى مشهدٍ جديد، وهو قولهم المستهزئ بعد الخروج، وعليه: فأداة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ليست للغاية المحضة بل هي دمجٌ بين وظيفتين.

دلالة استعمال ﴿إِذَا﴾:

الـوقـت يكشف خفايا المنافقين في الخداع والمكر

﴿إِذَا﴾ ظرف زمان متعلِّق بـ ﴿قَالُواْ﴾[1]، ممّا يعني أنَّ الآية تصوِّر لنا انتقالًا زمنيًّا مفاجِئًا: يستمعون إليك، وكأنَّهم مهتمّون، ثمَّ ما إنْ يخرجوا حتّى ينكشف حالُهم بقولهم المتعجرِف، وهذا التَّصوير يحمِل تهكُّمًا وسخرية خفيَّة؛ إذ يُظهِر تناقضَهم بين حال الاستماع وحال الاستهزاء بعد الخروج، ممّا يكشف نفاقهم وسطحيَّتهم في التَّعامل مع كلام النَّبيِّ ﷺ، فهذه البنية البلاغيَّة توحي بأنَّهم لا يستمعون لغرض الفهم والاهتداء، بل فقط للحضور الشَّكليِّ المترصِّد، ثُمَّ ينفضح أمرهم فور خروجهم، فجاءت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾؛ لترسِم هذا المشهدَ بدقَّةٍ وسلاسة.

بلاغة استعمال مفردة الخروج:

الـدَّلالـة على الانـتـقـال من داخـل المسجد إلى خـارجـه والإيـمـاء لـلـخـروج من الإسلام

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الخروج، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ دون المغادرة، أو الذَّهاب، أو الانتقال؛ للدَّلالة على الانتقال من داخل المسجد - الَّذي يُتلقّى فيه الهدى، ويُسمع فيه الوحي - إلى الخارج، وللإيماء إلى أنَّهم بخروجهم قد خرجوا من الإسلام لاستهزائهم برسول الله ﷺ وبالقرآن، وهذه الدَّلالة الإيمائيَّة إنَّما تُؤخذ من السّياق، لا من بنية اللَّفظ ودلالته اللُّغويَّة المحضة.

نوعُ ﴿مِنْ﴾ ودلالتها:

احتمال التَّعدية والابتداء مرتبط بالسّياق

تحتمل ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ أن تكون للتَّعدية[2]، فدورها حينئذٍ إيصال معنى الفعل ﴿خَرَجُواْ﴾ إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 99.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 99.

الظَّرف ﴿عِندِكَ﴾، فهي ليست مجرَّد بيان للمكان، بل تربط الفعلَ بمصدر الخروج، وتحتمل أن تكون لابتداء الغاية المكانيَّة تتعلَّق بالفعل قبلها[1]، أي: إنَّ الخروج بدأ من ﴿عِندِكَ﴾.

نكتة استعمال الظَّرف ﴿عِندِكَ﴾:

ترك المنافقون شرف المكان وشرف الرِّجال

الظَّرف (عند) ظرف مكان، وهو كنايةٌ عن مكان جلوس النَّبيِّ ﷺ في المسجد عند تعليم النّاس القرآن والإسلام، ولم يقل: (من المسجد) لشديد الذَّمِّ، فخروجهم كان من عند شخص النَّبيِّ ﷺ، والمكان الَّذي يجلس فيه، فجمع الظَّرف المضاف إلى الضَّمير شرف الرَّسول وشرف المكان، والمنافقون خرجوا من هنالك لضعف عقلهم، وذهاب حجَّتهم، فاستحقّوا شديد الذَّمِّ.

بلاغةُ استعمال الاسم الموصول:

إيتاء العلم تفضيلٌ إلهيٌّ يفوق الاكتساب البشريَّ

آثر النَّظم الكريم تسمية علماء الصحابة، أو الذين يستمعون القول للاتِّباع والاهتداء، بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾[2]، لدلالات بلاغيَّة متعدِّدة، منها: الإعلاء من شأنهم، فلم يقل: (العلماء) أو (المؤمنون)، بل استعمل وصفًا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم، فالإيتاء من الله ﷻ، وهو أبلغ من مجرَّد الاكتساب، فيفيد أنَّ علمهم موهوب من الله، وليس مجرَّد تحصيل بشريٍّ، وللإشارة إلى علمهم الرّاسخ، فصيغة ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ توحي بأنَّهم ليسوا مجرَّد متعلِّمين، بل نالوا العلم، وتمكَّنوا منه، على جهة الرُّسوخ فيه، بخلاف المنافقين الَّذين لا يعقلون، ولا يفقهون.

وللتَّعريض بالمنافقين، فالمنافقون سمعوا، لكنَّهم لم يُؤْتَوا العلم، بل خرجوا فارغين، فيكونوا بسؤالهم جاهلين ساخرين في آنٍ واحد، وهذا يؤكِّد أنَّ المشكلة ليست في وضوح كلام النَّبيِّ ﷺ، بل في

(1) قباوة، المفصل، ص: 1795.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 298، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 206.

قلوبهم المختومة الَّتي لا تقبل الفهم، فهذه التَّسمية إذًا ليست مجرَّد وصف، بل تحمل في طيّاتها تشريفًا للمؤمنين، وتوبيخًا للمنافقين، وإشارةً إلى معيار الفهم الحقيقيِّ للوحي.

بلاغة الاستفهام ودلالته بين الحقيقة والمجاز:

الكشف عن خفايا النُّفوس الجامعة بين التَّهاون والاستهزاء

الاستفهام الواقع مقولًا لقول المنافقين، في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾، إمّا على جهة الاستعلام، فيكون قد خرج مخرج الحقيقة، وذلك محمولٌ على أنَّ المنافقين لمّا كانوا أهل إعراضٍ وكَذِب؛ لم يثبتِ العِلمُ في صدورهم، وإن تحقَّق استماعهم له من قبل، فإنَّ العِلمَ يعزُبُ عن النُّفوس المتهاونةِ به، والأظهر أنَّه على سبيل الاستهزاء والسُّخرية من كلامه ﷺ[1]، كأنَّهم قالوا احتقارًا لكلامه: أيُّ فائدةٍ فيه؟[2] أو أن يكون سؤالهم تعريضًا بأنَّهم سمعوا كلامًا لا يُستبان المرادُ منه؛ لإدخال الشَّكِّ في نفوسِ المُقبلين على مجالس النَّبيِّ ﷺ؛ تعريضًا لقلَّة جدوى حضورها[3]، فيكون ذلك صَدًّا منهم لغيرهم عن مجالس العلم والإيمان والخير والهُدى.

والمعنيان - الحقيقيُّ والمجازيُّ - يُنبئان عن الإعراض وفواتِ انتفاعهم بفوات إقبالهم، فالمعنى الحقيقيُّ يَصِفُ إعراضهم وقت التَّلقّي، والمعنى المجازيُّ يَصِفُ إعراضهم بعد التَّلقّي، وكلاهما ذمٌّ لهم، ونعيٌ على عقولهم بالبلادةِ والسَّفَه.

دلالة حذف الفاعل:

من أمارات الاستهزاء بالقائل عدم التَّصريح باسمه أو نعته

حُذِف فاعل فعل القول في قوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾، والضَّمير عائدٌ على الرَّسول ﷺ المفهوم من قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وحذف الفاعل يدلُّ على عدم توقيرهم، وسوء أدبهم،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 206.
(2) ابن جزي، التسهيل: 2/ 282.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 101.

وذهاب حيائهم، فإنَّ عادة النّاس أنَّها تحذف الفاعل في مثل هذا التَّركيب، فيقولون: (ماذا قال؟) تحقيرًا لقيمة الكلام الصادر عن شخص بعينه، وهذا يصدق فيه قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمّد ﷺ: 30] – كما سيأتي – وهذه من شيَم المنافقين، ومعالم سلوكهم في كلامهم.

بلاغة استعمال لفظ ﴿ءَانِفًا﴾:

طلب معرفة ما قيل في بدايات الكلام يدلُّ على غفلةِ البدايات وضعف فهم الغايات

الأُنُف مستعار في اللُّغة من الأنْف التي هي الجارحة؛ لِتقدُّمِها من بين أجزاء الوجْه[1]، فكما أنَّ الأنف مبدأ الوجه، كذلك الاستئناف هو مبدأ الأمور، ولفظ ﴿ءَانِفًا﴾ إن كان اسم فاعلٍ؛ فهو حالٌ من ضمير: ﴿قَالَ﴾، أي: ماذا قال مُبتدِئًا أو مؤتنِفًا، أي: القول الَّذي ائتنفه، وابتدأه قبل انفصالهم عن مجلسه[2]، فهُم يستعيدون كلامه من الابتداء، "كما يقول المُستعيد للمُعيد: أعِد كلامك من الابتداء حتَّى لا يفوتني شيء منه"[3]، بخلاف ما لو قالوا: (ماذا قال من قبل؟) فليس فيه تعيين المبدأ المتقدِّم، وإن كان ﴿ءَانِفًا﴾ ظرفًا بمعنى السّاعة، أي: (ماذا قال السّاعة؟) فالتَّعبير بلفظ: ﴿ءَانِفًا﴾؛ للدَّلالة على السّاعةِ الَّتي وقع فيها مبادِئُ الحَدَث، فالمراد أيضًا استعادة الكلام من مُقدَّم وقتِه، ففيه إيماءٌ إلى أنَّهم يُريدون استعادة ما سُمِع من البداية؛ تعلُّلًا أنَّهم لم يكونوا حاضرين، أو أنَّهم أتوا متأخِّرين.

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

علامات الباطل تظهر في فلتات اللِّسان ولحن الكلام

فُصِل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ لأنَّه شبه كمال اتِّصال؛ لأنَّ قولهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ سؤالٌ غريبٌ من شأنه إثارة سؤالٍ من يسأل عن سبب إيراده منهم،

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 26.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 467.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 50.

وذلك مُتأتٍّ على المعنيين الحقيقيِّ والمجازيِّ في مرادهم منه[1]، فإنَّ المؤمن الحصيف بمجرَّد أن يسمع هذا السُّؤال؛ فإنَّه سيتَّجه سائلًا عن حال أولئك السّائلين؟ فتأتي الإجابة واضحةً لا احتمال فيها.

نكتة استعمال اسم الإشارة للبعيد:

آثر النَّظم الكريم استعمال اسم الإشارة للبعيد، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ لبيانِ بعدهم عن الحقِّ، وبعدهم عن مواضع الشَّرف، ومواطن المجد.

دلالة استعمال الاسم الموصول:

آثر النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ وذلك للدَّلالةِ على أنَّهم معروفون بصفاتهم التي تُبيِّن أنَّهم قوم قد طبع على قلوبهم، وأُبعدوا عن القبول في كتاب القبول، واستحقّوا الإبعاد بسبب الطَّبع، فإنَّ جملة صلة الموصول تُزيل إبهام الاسم الموصول، كأنَّه قيل: أولئك مبعدون عن الفقه وحسن الاستماع المؤدّي إلى الهدى؛ لأنَّ الله طبع على قلوبِهم، أو أراد تحقيرهم، فهُم أحقر من أن يعلموا، ويفقهوا ما قاله الله ورسوله، فقد طبع الله على قلوبهم.

لا يطبع الله على قلوب العباد إلّا إن انحرفوا عن الحقِّ، وأبوا الإيمان بالحقِّ

توجيه عطف اتِّباع الهوى على الطَّبع على القلوب:

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، على الطَّبع على القلوب في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ لإبراز العلاقة بين الطَّبع واتِّباع الهوى، فقدَّم ذِكرَ الطَّبعِ على القلوب، ثُمَّ أتبع ذلك بذكر اتِّباع الهوى؛ للإيماء إلى أنَّ الطَّبع على القلوب هو المقدِّمة لاتِّباع الأهواء، فبعد أن طبع الله على قلوبهم اتَّبعوا أهواءهم، أو أن يكون العطف من باب الإخبار عمّا صدر عنهم قبل الطَّبع على

اتِّباع الهوى علَّة الطَّبع على القلوب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 101.

القلوب؛ تذكيرًا بما صدر عنهم، فهو من باب عطف العلَّة على المعلول، أي: طبع الله على قلوبهم؛ لأنَّهم اتَّبعوا أهواءهم، فطَبْعُ الله على قلوبهم نتيجةٌ عن اتِّباع أهوائهم أوَّلًا، وهو سببٌ أيضًا لبقائهم واستمرارهم على حال اتِّباع الهوى ثانيًا[1].

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ استئنافيَّة، فالجملة استئنافٌ للحديث عن صفات المؤمنين بعد الحديث عن صفات المنافقين، وتحتمل أن تكون اعتراضيَّة، والجملة معترضة بين جملة ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾، وما تفرَّع عنها من قوله: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، وغرض الاعتراض: مقابلة فريق الضَّلالة بفريق الهداية على الأسلوب الَّذي أقيمت عليه هذه السّورة، كما تقدَّم في أوَّلها، فهذا أسلوب مستمرٌّ، وإن اختلفت مواقِعُ جُمَلِه[2].

الأرواح تتباين في رفض الحقِّ وقبول الهداية

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول عن المبتدأ، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾؛ للإشعار بسبب استحقاق الزّيادة في الهدى، في قوله: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾، فلم يقل: (المهتدون زادهم هدى)، بل جاء بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾؛ لما في ذلك من دلالة على العِلِّيَّة والسببية، أي: إنَّ سبب زيادة الهداية لهم هو أنَّهم اهتدوا من قبل، وفي التعريف بالصِّلة إيذانٌ بالمقابلة مع التعريف بالصِّلة في الفريق الآخر في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، فهؤلاء المهتدون متميّزونَ أكمل تمييزٍ على جهة المدح والإكبار، وهؤلاء المنافقون متميّزون أكمل تمييزٍ على جهة الذَّمِّ والصَّغار.

مكافأة أهل الحقِّ بمزيد الطّاعات سنَّةٌ إلهيَّة يعرفها المؤمنون

فالتعبير بالموصول وصِلته يرسِّخ مفهوم التفاوت بين الفريقين في

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 27.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 115، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 102.

جزائهم للمقابلة اللفظية بينهما، فكما أنَّ الضالَّ يُطبَع على قلبه، فإنَّ المهتدي يُزاد من الخير، وفي هذه مقابلة للمؤمنين بالمنافقين، فكما كان التَّحقير للمنافقين فيما سبق في الآية الكريمة؛ كان التَّعظيم للمؤمنين في هذه الآية بالاهتداء والزّيادة عليه.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾:

استمرار الإمداد على حسبِ مقدار الاستعداد

جاء التَّعبير بصيغة ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ دون أن يُقال: (الَّذين هداهم الله)؛ لإبراز دورهم في اختيار الهداية وسلوكها، فهم لم يُجبروا عليها، بل سعوا إليها بإرادتهم، ففيه مدحٍ وثناء عليهم، وفي تحقيق فعل الهداية وفعل الزّيادة بمجيئهما على صيغة الماضي، في قوله: ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾، ﴿زَادَهُمۡ﴾ إلماحٌ إلى أنَّ الهدى لا يتوقَّف عند حدٍّ، بل هو درجاتٌ يتصاعد فيها العبد بحسب سعيه.

كما أنَّ هذه الصّيغة تدلُّ على الحرص والاجتهاد في تحصيل الهداية، أي: حملوا أنفسهم على اعتناق الهداية، وتخلَّصوا من وازع الهوى، فيلزم عن ذلك أنَّ اتِّصافهم بالهداية كان عن اختيارٍ منهم وإرادةٍ ذاتيَّة، لا عن قسرٍ وإجبار، وتدلُّ الصّيغة على التَّدرُّج، أي: دخلوا في مَراقي الهداية درجةً درجةً، حتّى تمكَّنوا منها، وثبتوا عليها، وهذا المعنى بديع المناسبة مع قوله: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾؛ لأنَّ الهدايةَ مَراقٍ ودرجات، كلَّما اجتهدوا فيها؛ زيدوا منها بقدر ما استمسكوا منها، وتدلُّ الصّيغة على إظهار الفعل، فمعنى قوله: ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾، أي: أظهروا خُلُقَ الهداية، فأماراتها ظاهرةٌ عليهم، وذلك على غرار قولهم: (اعتذر فلان)؛ إذا أظهر العُذْر، وتدلُّ الصّيغة هنا على القوَّة والمبالغة في القيام بالفعل، فمعنى ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾، أي: أخذوا أسباب الهدايةِ بقوَّة، وتناولوها بعزْمٍ وصدق.

براعة العدول عن الاهتداء إلى الهدى:

آثر النَّظم الكريم استعمال المصدر ﴿هُدٗى﴾، دون (اهتداء)،

الاهتداء جُهدٌ بشريٌّ، وهو دليل طلب الهُدى الإلهيّ

وهو مصدر الفعل: ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ (الهدى) فضلٌ من الله تعالى، وليس مجرَّد فعلٍ من العبد، أي: إنَّ الفعل (اهتدى) بصيغة (افتعل)، يدلُّ على سعي العبد لاكتساب الهداية بنفسه، وأمّا ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾؛ فجاء بصيغة الاسم المجرَّد (هدى)؛ للإشارة إلى أنَّ الهداية هنا صارت نعمةً خالصةً من الله يُفيضها عليهم، بعد أن سعوا إليها، كأنَّه قيل: لمّا اجتهدوا في طلب الهداية، كافأناهم بأن زدناهم نورًا وهدًى إضافيًّا، لم يكونوا؛ ليحصلوا عليه بأنفسهم، فالهدى في قوله: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾، أعلى في جنسه وحقيقته من الاهتداء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾، وللدَّلالة على هذا التَّباين لم يقل: (زادهم اهتداء)، أي: زادهم جنسًا آخرَ من الهداية لم يكونوا عليه، هو في حقيقته محض فضلٍ من الله تعالى، عندما فتح العبد يديه، وأطلق لسانه بطلب الهداية، كما أنَّ المصدر ﴿هُدٗى﴾ أقوى دلالة على الرُّسوخ والثَّبات من (اهتداء)؛ لدلالته على الأصل المجرَّد من غير زيادةٍ تتعلَّق بعملِ الفاعل، فكأنَّه جاء بأصل الهُدى وحقيقته المجرَّدة، واستودعها في نفوسهم، فصار معنى الهداية متمكِّنًا منهم مُشرَبين به لا يفارقهم[1].

تقدير الفاعل بين الحقيقة والمجاز:

الهدى من الله تعالى ابتداءً وانتهاءً

الفاعل لفعل الزّيادة في قوله تعالى: ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ هو الله سبحانه، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 73]، أي: لا هدًى إلّا منه، فمنه يأتي الهدى على الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ أي: طلبوا الهداية من الله؛ إذ هو الهادي، فهداهم ابتداءً، وزادهم هدًى بعد ذلك، فهما أمران، الهداية الأوَّليَّة، ثُمَّ الزّيادة في الهداية، وكلاهما من الله تعالى.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 50.

والقول بأن يُقدَّر الفاعل: (زادهم الرَّسول هدًى)؛ على اعتبار أنَّهم كانوا يستمعون إليه في مجلسه، فَزيدوا به عِلمًا وخشية، وازداد المنافقون به بلادةً وإبعادًا، ومثله القول أن يُقدَّر الفاعل: زادهم تشكيكُ المنافقين وإرجافُهم هدايةً وثباتًا، أو زادهم العِلمُ الَّذي تعلَّموه في مجلس النَّبيِّ هُدًى، فجمع بين الاتِّصاف بالعِلم والاتِّصاف بالهداية، فهي من قبيل المجاز العقليِّ، بإسناد الفعل إلى سببِه[1].

نكتةُ العطف بين الجمل:

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ ليُبيَّن أنَّ الزِّيادة في الهدى لم تكن مجرَّد إرشادٍ أو بيانٍ نظريٍّ، بل أثمرت تقوى عمليَّة، فكأنَّ زيادة الهدى كانت السَّبب في إيتاء التَّقوى؛ ليدلَّ بذلك على تدرُّج العبد في مراقي الفضل الرَّبّانيِّ، فالتَّقوى أثرٌ من آثار الهدى؛ إذ الهدى بوّابة التَّقوى، فمن لم يهده الله للإسلام والإيمان؛ فلن يوفَّق للتَّقوى.

بلوغ التَّقوى علامةٌ على إثمار الهدايةِ في قلبِ العبد

بلاغة المجازِ بحذف المضاف:

قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ جارٍ على حذف مضافٍ، تقديره: (وآتاهم خُلُقَ تقواهم)، أو (وآتاهم ثوابَ تقواهم)[2]، وفائدة الحذف: التَّوسُّع في المعنى؛ ليشمل كلا التَّقديرين (خلق التَّقوى وثوابها)، فلو قُيِّد اللَّفظ بأحد المعنيين؛ لضاق دلالةً، أمّا بحذفه؛ فصار المعنيان متحقِّقين معًا، وفي حذف المضاف إيجازٌ بليغٌ يزيد من ثِقَل المعنى وعُمقِه، بمُضاعفة القوَّة التَّأثيريَّة للمعنى، فحين تُقْرأ الآيةُ من غير مُضافٍ، يُدرك القارئُ أنَّ الله آتاهم (التَّقوى) ذاتها، وكأنَّها شيءٌ محسوس يُعطَى، فيعرف أنَّ التَّقوى هِبَةٌ إلهيَّةٌ عظيمة،

التَّخلُّق بالتَّقوى علامةٌ ظاهرة على الهداية الباطنة

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 27، والقنوجي، فتح البيان: 13/ 64.
(2) القنوجي، فتح البيان: 13/ 64.

قبل أن تكون كَسْبًا بشريًّا يحقِّقونه في أعمالهم، فيترسَّخ في قلب العبد قيمة التَّوفيق الإلهيِّ.

دلالة إضافة التَّقوى إلى الضَّمير:

تقوى المؤمنين معهودةٌ في جمالِها وجلالِها

أُضيف لفظ التَّقوى في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، إلى الضَّمير العائد على المهتدين؛ وذلك لبيان أنَّ لهؤلاء تقوًى معهودةً لا ينالها إلّا المؤمنون الصّادقون الموفَّقون، والإضافة بمعنى (اللّام)، أي: تقوى لهم، فهي خاصَّة بهم، وهم يستحقّون المدح بسببها.

بلاغة التَّقابل بين أوصاف الفريقين:

الطَّبعُ إيصادٌ وإغلاق، والهُدى فتحٌ وإشراق

قابل النَّظم الكريم بين أوصاف الفريقين، فقوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ في حق المنافقين، يُقابل قوله: ﴿زَادَهُمۡ هُدًى﴾ في حقِّ المؤمنين؛ لأنَّ الطَّبع يحصل بانغلاق القلبِ التّامِّ عن بصائر الوحي، ولا يحصل هذا إلّا بزيادةِ ظُلُماتِه وتراكُمِ ضلاله، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، يقابل قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، فإنَّ استمرارهم على اتِّباع الهوى هو نتيجةُ الطَّبع على قلوبهم، وكذلك تحقيقهم التَّقْوى هو نتيجة زيادتهم بالهدى[1]، وهذا التَّقابل بين أوصاف الفريقين، يقود إلى معرفة أسرار القبول، وعلل التَّوفيق.

(1) القنوجي، فتح البيان: 13/ 64.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"